الهويـــــة والاستعمـــــار.

الباحثة: مازية حاج علي
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر – بسكرة

تعلق مفهوم الهوية في الأدب الجزائري بالفترة الاستعمارية وما بعدها ، إذ عمل الاستعمار على تشويه الهوية الجزائرية و مقوماتها من طمس لمعالم الوطنية و تجريد الشعب من حقوقه في اللغة و الدين و الجنسية و حتى الملكية ، كما حاول التفريق بين الأفراد بمنع التجمعات و قمع الحريات الفردية و الجماعية ، وفي ظل هذا الاضطهاد الممارس على الشعب عملت الفئات المثقفة في الجزائر على خلق الهويات الفرعية والتمسك بمبادئ الهوية الوطنية. فيا ترى ما الهوية ؟ و فيم تمثلت مقوماتها الوطنية ؟ كيف أسهم رواد الأدب الجزائري في المحافظة عليها من الاندثار و التلاشي ؟ و ما الطريقة التي عبر بها الأدب الجزائري عن هويته العربية الإسلامية ؟

الهوية مصطلح عام و متداخل، يصعب تحديده بمفهوم أو تعريف معين فهي كلمة معنوية مجردة تحتمل كل التأويلات من بينها أن « الهوية هي الحقيقة المطلقة للشيء أو الشخص المشتملة على صفاته الجوهرية التي تميزه عن غيره و تسمى أيضا وحدة الذات أي خلوها من التناقضات و التشتت»[1] أي هي مجموعة التشابهات الموجودة عند أفراد معينين ، و قد يتسع مفهومه أو يضيق ، حسب انتساب الشخص إلى عائلة أو مجتمع أو عالم ما ، كما أنها تتوافق مع جملة من الأفكار و التطلعات من أهمها القومية ، الحرية، المواطنة ...وعند التقائها بهذه المفاهيم « ربطها البعض بالخصائص النفسية والحضارية والاجتماعية و السياسية أو ما يعرف بالانتماء ، و اعتبرها البعض بأنها السمات المميزة لدولة قومية عن دولة قومية أخرى بناء على القسمات التي يشترك فيها شعب من الشعوب، ويختلف فيها شعب عن آخر »[2] إذ الهوية إحساس بالانتماء إلى جهة معينة و الاشتراك في قومية واحدة و منطلقات فكرية ثابتة .

وفي هذه الحال « إن الفرد ملزم بالانتماء إلى جماعته التي تحدد بدون استشارته هويته و معاييرها الموجودة في صورة قائمة أو جرد تبويبي يجمع علنا أو ضمنيا سمات الهوية أو السمات الثقافية الملازمة لها»[3] لأن الإنسان يولد مرتبطا بهوية ما و منتسبا إلى مجتمع معين له ثقافته الخاصة به ، وما يفرض الانتماء إلا المقومات المشتركة في الهوية والتي تجعل الفرد داخل الجماعة أو الأمة كون« الهوية العربية تقوم على عدد من المرتكزات المعروفة و في طليعتها الدين ، و هو الإسلام غالبا و اللغة و التراث الحضاري وما ينطوي عليه ذلك كله من عمق تاريخي »[4] وعليه فهي تجمع بين الماضي و الحاضر ، تعني المحافظة على التراث التاريخي و مواكبة الحديث و الاستفادة منه سعيا لتحقيق التناغم الإنساني .

وقد سعى الأدباء الجزائريون إلى تأكيد هويتهم الإسلامية العربية الجزائرية في جل أعمالهم ، حتى تلك المكتوبة باللغة الفرنسية ، إذ ناضل هؤلاء خير نضال بمحاربة الاستعمار بلغته التي اعتمدوها سلاحا ضده ، فهذه " **نجمة** " لكاتب ياسين و محمد ديب في ثلاثيته ، كذلك مولود فرعون ومالك حداد ... وغيرهم ممن اعتدوا بالكلمة لفرض صوتهم، وكانت كتاباتهم مستوحاة من واقع الشعب الجزائري الطامح لإعادة هويته و كيان وطنه المستعمر.

إن الثقافة صانعة للهوية ، فهي ما يوحد فكر أمة برمتها وهذا ما حافظ على تماسك هوية الجزائريين ، سواء المثقفين ثقافة عربية أو ثقافة فرنسية ، فقد استطاعوا تفعيل المجتمع و التغيير فيه من خلال بث الروح الوطنية في الشعب بالدعوة إلى الاتفاق في القضية الوطنية ، إذ « ... من النادر أن يحافظ مجتمع على كيانه المتماسك في غياب الدولة ، و إنكار وجودها أصلا ، كما حدث في الجزائر لمدة قرن و ثلث[5] صحيح أن الجزائر دولة لم تكن تملك سيادتها الوطنية ووحدة ترابها ، إلا أنها كانت تحمل هوية لا تتجزأ لا بفعل الاستعمار و لا بغيره عملت على ترسيخها في شعبها ، فكل فرد من أفرادها يعي في أعماقه معنى الوطن واسترداد الهوية ، ومهما حاول الاستعمار القضاء على كينونة الشخصية الجزائرية فإنه لم يفلح ، لأن الهوية الجزائرية بقت محافظة دوما وأبدا على إرثها الحضاري.

إن إيمان الشعب و صموده في وجه الاستعمار الغاشم من خلال رفضه لكل سياسة استعمارية تمس الهوية و العرض الجزائري و رموز السيادة الوطنية جعل وعيه السياسي

والأدبي ينمو إذ « كان الاستعمار عاملا رئيسيا في استثارة مفهوم الهوية و أشكلته في عالم اتسمت نظرته لنفسه و ما حوله بقدر كبير من الوضوح و الثبات ... كان الغرب المستعمر يخلق صدامات ثقافية حيثما حل من خلال قيمته التي يفرضها على البيئات الاجتماعية و الثقافية التي يحل فيها ، و التي تضطر تلك البيئات بدورها للمقاومة قدر ما تستطيع »[6] رغبة منه في إيهام الشخصية الجزائرية بأنها دولة فرنسية ، و محو ماضيها وحاضرها و طمس مستقبلها ، ومن ثمة انتهاك كامل صلاحياتها في السيادة و الهوية، إضافة إلى تقرير المصير.

فلم يجد أبناء هذا الوطن غير« التشبث بأرضهم و البقاء فيها أو العودة إليها حفاظا على كيانهم من الاندثار وعلى هويتهم من التلاشي»[7] فهذا حق من الحقوق التي رغب المستعمر هضمها واستغلالها لمصالحه الخاصة ، قد عبرت مجموعة من الكتاب و الشعراء الجزائريين عن رفضها للنظام المسلط على وطنهم نلمس ذلك في معظم الأعمال عند مفدي زكرياء و الشاعر محمد العيد آل خليفة و الربيع بوشامة و غيرهم من الشعراء الذين استماتوا في الدفاع على الجزائر و الشخصية العربية الإسلامية ، أما في الإبداع النثري نجد عبد الحميد بن هدوقة الطاهر وطار، محمد عرعار...إذ تظهر في أعمال هؤلاء اهتمامات الأمة و انشغالات الشعب الجزائري في قيمة التراب الوطني باعتباره رمزا من رموز الهوية ، كما عبر أدباء الجزائر عن تطلعاتهم و أحلامهم و أفكارهم حول مستقبل الجزائر مثلما فعل الطاهر وطار في رواية **غدا يوم جديد** ، وإسماعيل غموقات في **الشمس تشرق على الجميع** ...فكلها كتابات جزائرية حملت على عاتقها هموم شعب فمثلته أحسن تمثيل ، فقط لأنها تنتمي إليه ، و تحمل نفس هويته فسعت إلى« محاولة للعثور على الذات و تحديد هويتها و تعيين كيانها...»[8] فوجود الإنسان مقترن بانتسابه إلى هوية تمثل قاسما مشتركا بينه من أبناء بلده كالعقيدة و اللغة والعادات و التقاليد و القيم المتوارثة و حتى الوعي بالحاضر الراهن و المستقبل المنتظر.

لعبت الهوية في الواقع العربي الجزائري دورا مهما في التحرر من جهة والتوحيد بين أوساط الشعب الجزائري من جهة ثانية عندما « حارب الاستعمار الفرنسي اللغة العربية، واضطهد العلماء ، ومنع المثقفين من نشر العلم ، وفرض اللغة الفرنسية على الأهالي واعتبر اللغة العربية لغة أجنبية »[9] و بمحاولته التعرض للغة العربية تصدت له الفئة المثقفة وهاجمته بلغته و عبرت عن رفضها إياه جملة و تفصيلا ، و عندها « اتجهت عناية

الاستعمار الفرنسي بالخصوص في حربه للدين الإسلامي و معالمه ، إلى هدم المساجد وتحويل بعضها إلى كنائس و بيع و ثكنات ...»[10] فهو يعلم تمام المعرفة أن محور وعمود الهوية الجزائرية هو الإسلام ، فعمد إلى سياسة التنصير ، ونشر المسيحية بين الأوساط الجزائرية كذلك عمل على إغراق الشعب في البدع و الخرافات و الجهل و الأمية.

الاستعمار في حقيقته استدمار ، عمل بكل الوسائل الممكنة و المتاحة إليه على محي الهوية ومقوماتها كافة من الجزائر ، لكن أبناء هذا الوطن من كل طبقاته المثقفة و الأمية كانت بالمرصاد له ، متحدية سواء بقدرة القلم و الكلمة ، أم بسياسة السلاح و القوة ، فكما يقال ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة ، فالعزم على تحقيق الهدف المنشود في استعادة الهوية كان الرغبة الأسمى و الأساس لهؤلاء العظماء.

الهوامش والمراجع

1- رضا شريف ، الهوية العربية الإسلامية و إشكالية العولمة عند الجابري ، مؤسسة كنوز الحكمة ، الأبيار الجزائر ، د ط ، 1432هـ/2011م ، ص14.

2- نفس المرجع ، ص18.

3- محمد العربي ولد خليفة ، المسألة الثقافية و قضايا اللسان و الهوية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، د ط ، 2003م ، ص 109.

4- سعد البازعي ، شرفات للرؤية العولمة و الهوية و التفاعل الثقافي ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب ، د ط ، 2005م ، ص45.

5- المرجع السابق ، ص181.

6- سعد البازعي ، شرفات للرؤية العولمة و الهوية و التفاعل الثقافي ، ص 52.

7- سامي سويدان ، فضاءات السرد و مدارات التخييل الحرب و القضية و الهوية في الرواية العربية ، دار الآداب ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2006م ، ص149.

8- نفس المرجع ، ص139.

9- محمد الصالح الصديق ، الجزائر بلد التحدي و الصمود ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر ، د ط ،2007م ، ص24.

10- نفس المرجع ، ص88.